مجلة علم النفس

مجلد ٦ — أكتوبر ١٩٥٠ — يناير ١٩٥١ — عدد ٢

أدولف ماير

١٨٦٦ — ١٩٥٠

بقلم

الدكتور صبرى جرجس

مدير العيادة العصبية النفسية بوزارة المعارف

فى السابع عشر من مارس عام ١٩٥٠ فقد الطب العقلى بموت أدولف ماير علما من أشهر أعلامه ورائداً سيظل اسمه أبداً فى الصف الأول من العلماء الذين وقفوا حياتهم على خير الإنسان ورفاهيته عن طريق الجهد المتصل فى دراسته وفهمه .

وقد يكون عسيراً علينا أن نقوم العمل الضخم الذى أتمه أدولف ماير لو لم نرجع بالذاكرة إلى ما كان الطب العقلى عليه حين بدأ ماير حياته العملية ؛ فإن كثيراً مما دعا إليه وكافح من أجله قد أصبح اليوم من البديهيات المسلم بها .

ولد ماير فى ١٣ سبتمبر عام ١٨٦٦ فى كنيسة قرية نيدر فننجن السويسرية بالقرب من زوريخ ، وكان أبوه قساً إنجيلياً . وقد أحس الفتى أدولف برغبة قوية فى دراسة الطب ؛ فحقق هذه الرغبة على أعلام الأطباء يومئذ .

وبعد أن حصل على إجازته الطبية فى عام ١٨٩٢ رغب فى أن يشتغل بالطب العقلى ولكنه رغب عن أن يكون ذلك بسويسرا فسافر إلى أمريكا حيث أتيحت له فرصة الدراسة بجامعة شيكاغو إلى جانب العمل المتواضع بعيادته الخاصة .

ثم سنحت له الفرصة بعد ذلك بقليل ليلتحق بالمعمل الباثولوجى بالمستشفى الحكومى للأمراض العقلية بكانكاكى بولاية الينويس . ثم انتقل إلى المعمل الباثولوجى بمستشفى ورشستر للأمراض العقلية بولاية ماسشوستس وظل به من

عام ١٨٩٥ إلى عام ١٩٠٢ حين جذبته مدينة نيويورك للعمل بها بفكرة تنسيق البحوث الباتولوجية فى مستشفياتها الحكومية الثلاثة عشر . وفى نفس الوقت عين مديراً لمعهد نيويورك للطب العقلى أستاذاً للطب العقلى بجامعة كورنل من عام ١٩٠٤ ، وفى عام ١٩١٠ افتتحت جامعة جونز هوبكنز عيادة هنرى فيبس العقلية بها ، وجعلت ماير على رأسها أستاذاً للطب العقلى حيث ظل ما يزيد عن الثلاثين عاماً ، أى حتى اعتزل العمل فى عام ١٩٤١ . ثم عاش بعد ذلك عيشة هادئة مع زوجته فى بلتيمور حتى أدركته الوفاة .

• • •

عند ما بدأ أدولف ماير حياته العملية بأمريكا فى عام ١٨٩٢ كانت زعامة الطب العقلى معقودة على كريبلين ، وكان اسمه هو ألمع الأسماء فى هذا الميدان بأرجاء العالم قاطبة . كان كريبلين عن طريق الوصف الكلينيكى المستفيض قد قلب كثيراً من الآراء السائدة فى عالم الطب العقلى يومئذ رأساً على عقب ، كان صاحب منهج جديد فى بحث الحالات العقلية هو المنهج الوصفى ، وعن طريق هذا المنهج وضع تصنيفاً جديداً للأمراض والاضطرابات العقلية فصلا قاطعاً وجعل لكل منها اسماً يشير إليه ويدل عليه ويقطع ما بينه وبين غيره من الأمراض .

فى الوقت الذى كان كريبلين يقوم فيه بهذا الجهد العلمى فى انجلترة الأوربية كان حال المستشفيات العقلية فى أوربا وأمريكا أبعد ما يكون عن مسايرة التقدم الذى كان يسير بخطى حثيثة فى العالم الطبى نتيجة النهضة التى بعثتها اكتشافات فيرشو فى علم الباتولوجيا . كانت المستشفيات عقلية يومئذ لا تعدو كونها أماكن لحجز المرضى ، مقطوعة الصلة ، أطباءها ومرضاها على حد سواء بالمجتمع وبالعالم الذى معاً .

ولهذا لم يكن غريباً بعد عامين من وصول ماير إلى أمريكا ، أى فى عام ١٨٩٤ ، أن يقف وير ميتشل الأخصائى المشهور فى طب الأعصاب ، وهو يومئذ من ألمع الأسماء فى الطب الأمريكى ، يخاطب الجمعية الطبية النفسية الأمريكية بمناسبة الاحتفال بعيدها الخمسينى فيحمل حملة شعواء على رجال المستشفيات العقلية ، موجهاً إليهم مر النقد وناعياً عليهم عزلتهم وتخلفهم عن مسايرة التقدم الطبى فيقول « كنا نتحدث عن المستشفيات العقلية فيما مضى باحترام ، أما اليوم فلا . أننا إخصائيو الطب العصبى نظن أنكم تخلفتم عنا ، وهذا الرأى قد امتد إلى خارج صفوفنا ، ووزره إلى حد ما على الأقل واقع عليكم...

أين تقاريركم العلمية الدقيقة . . . إنكم تعيشون فى عزلة . فلا نقد ولا سؤال ولا شىء فى هذه الصراعات والمنافسات الأمينة التى رفعتنا (نحن إخصائيى الطب العصبى) إلى أعلى درجات الكفاية » .

أما فى العمل الخاص فلم تكن الحال لتحيرا من ذلك . كان الغالبية من الإخصائيين العقليين يعيشون كما ذكرنا فى عزلة داخل مستشفياتهم . وكانت حالات المرض النفسى تعرض أكثر ما تعرض لإخصائيى الطب العصبى الذين لا تؤهلهم دراستهم ولا مرانهم لفهمها وعلاجها على أى وجه نافع . وكان علم التحليل النفسى يومئذ لا يزال فى مطالعه الأولى ، وقد نشأ فى كنف الطب العصبى إذ بدأ فرويد نفسه حياته العملية مشتغلا بطب الأعصاب وقصد إلى باريس ليتلمذ على شاركو أشهر أطباء الأعصاب فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، واستمع إليه يحاضر فى الأمراض العصبية ومن بينها الهستريا كما كان العالم الطبى يعتقد فى ذلك الوقت ، فساعد ذلك كله على اختلاط الأوضاع على الناس فى أول الأمر ، ولكن الطب العقلى ، بعد أن خرج من عزلته بفضل ماير وأصحابه سرعان ما اتصل بالتحليل مرحبا ، وأقبل إخصائيوه عليه يبهلون منه ويتزودون من تعاليمه بما يفتح أمامهم آفاقاً جديدة فى فهم الأمراض النفسية والعقليه وعلاجها . وقد كان لهذا التعاون بين الطب العقلى والتحليل النفسى ، وهو تعاون محتوم تدعو إليه وتدعمه طبيعه العمليات المرضيه نفسها ، أثره الفعال ، فخرجت الأمراض النفسية والعقلية من دائرة الطب العصبى ، وأصبح مفهوماً أن الأضطراب النفسى أو العقلى ، فى أية صورة يبدو ، لا علاقة له « بالأعصاب » الضعيفة أو المتعبة ، وأن علاج الأمراض النفسية والعقلية لا يدخل من قريب أو بعيد فى نطاق المختصين بطب الأعصاب ، أو ما يطلق عليه فى الاستعمال الدارج الأمراض العصبية[1] .

---

(١) نرى من الخير ونحن بصدد الحديث عن الطب العصبى والطب العقلى أن نجلو المعنى العلمى المقصود من هذين المصطلحين ، فإنه وجده هو المعنى الصحيح . فالطب العصبى (Neurology) هو ذلك الفرع من الطب الذى يعنى بدراسة الأمراض العضوية للجهاز العصبى فى أى جزء من أجزائه ، من المخ إلى الأعصاب المحيطية . والمرض العصبى يستلزم بالتالى أن يكون نتيجة إصابة عضوية لتلك الجهاز (تنتج عادة إما من عمليات التهابية أو إنحلالية أو إصابات بالجهاز الدموى أو أورام) ، وتظهر أعراضها بصفة خاصة فى صورة اضطراب حسى أو حركى يختلف فى مظهره بحسب نوع الإصابة وموقعها من الجهاز العصبى . أما الطب العقلى (Psychiatry) وهو أيضا الطب النفسى (Psychologica) =

ترى لو قدر لوير ميتشل أن يعود اليوم ليرى هذه القفزات الضخمة التى حققها الطب العقلى فى مثل هذا الفترة القصيرة نسبياً فى تاريخ العلم ماذا عساه يقول ؟ ثم بماذا عساه يشعر وهو يرى الطب العصبى ، فرع تخصصه الذى طالما زها به واعتز ، وقد تقلص وانكمش وضاق نطاقه حتى لم يكد يبقى منه شىء بعد أن اقتسم أغلب ميراثه أخصائيو الطب العقلى من ناحية وجراحو الأعصاب من ناحية أخرى ؟

لو كان لرجل واحد فضل فى أن جرت الأمور مجراها السوى وأن تبوأ الطب العقلى هذه المكانة المرموقة بين فروع التخصص الطبى جميعاً ما كان هذا الرجل سوى أدولف ماير .

* * *

فى أواخر القرن التاسع عشر ، أى فى السنوات الأولى من حياة ماير العملية ، كان اتجاه الطب العقلى منصرفاً إلى تحديد العلاقة بين المرض العقلى وبعض العلوم الطبية الأساسية كالباتولوجيا والفسيولوجيا والكيمياء الحيوية . وقد كان هذا الاتجاه فى ذاته تحولاً ذا بال فى دراسة المرض العقلى . . . تحولا من دراسة

= (Medicine) فإنه ذلك الفرع من الطب الذى يعنى بدراسة العوامل النفسية أو الانفعالية فيما يصيب الإنسان من مرض ، أيا كان مظهره أو كانت أعراضه ، فهو بذلك يجمع بين الحالات التى تظهر أعراضها فى المجال النفسى المحض كالمخاوف والوساوس والحالات التى تظهر أعراضها فى المجال الجسمى (كالربو وقرحة المعدة والارتكاريا وارتفاع ضغط الدم الأولى إلخ) بعد أن وضح تماما أن العامل النفسى أو الانفعالى يلعب دوراً هاما فى علية هذه الحالات وغيرها .

هذا هو الوضع الآن ، ومنذ سنوات طويلة ، فى أمريكا والبلاد التى نضج فيها الوعى الصحى العام إلى درجة يمتنع فيها هذا اللبس اللفظى ، ولا يؤدى ، إذا وقع ، إلى مثل النتائج الخطيرة التى نراها كل يوم من الجمع ، تحت كلمة الأمراض « العصبية » بين الأمراض العصبية الحقيقية ، أى العضوية ، وبين الأمراض النفسية والعقلية . وهذا الخلط موجود ، بل ذائع مع الأسف بمصر ، يقع فيه جمهور الناس والأطباء على حد سواء . ويدفع المرضى ثمنه غاليا من صحة نفوسهم ومن كفايتهم وسعادتهم ، بل ومن حياتهم أيضا فى كثير من الأحيان . فما أكثر الضحايا الذين وقعوا صرعى الخطأ ، المتعمد أو عن جهل ، لهذه الكلمة « أعصاب » . ما أكثر الذين يعانون القلق والمخاوف والوساوس ، الذين يجافيهم الاستقرار ويتنكبون سبيل النجاح فى المدرسة أو العمل أو الزواج ، الذين يدفع بهم الاشتياق إلى محاولة التخلص من حياة لا يرون فيها إلا الذنوب والهموم ، أو يدفع بهم الهياج إلى عدوان لا تحمد عقباه على الغير أو الذات . ما أكثر هؤلاء وغيرهم من مرضى النفس والعقل الذين راحوا مضللين يردون العلاج لعللهم من غير موارده ، فما باءوا بعد المحاولات المتكررة الفاشلة لمداواة « أعصابهم » ، فوق ما فقدوا من وقت وجهد ومال ، بغير المرض والحسرات .

الأنسجة بعد الوفاة إلى دراستها أثناء الحياة . فى هذه الأثناء ظهر أدولف ماير وهو لا يزال بعد فى مستهل حياته العلمية . فلم ير الوقوف عند دراسة الأنسجة الحية وحسب . بل ألح فى دراسة المريض الحى الذى يتحرك ويعمل فى بيئته . وكانت هذه أولى الخطوات فيما وصل الطب العقلى إليه فيما بعد . تحت زعامة ماير . من تقدم فى فهم الإنسان .

فلما انتهى ماير من العمل بالمعمل الباتولوجى ثم تولى إدارة معهد نيويورك للطب العقلى فى عام ١٩٠٢ وشغل كرسى الطب العقلى بجامعة كورنل فى عام ١٩٠٤ سنحت الفرصة لإخراج اهتمامه الواسع بالبشر من نطاق المعمل الضيق إلى آفاق الحياة الواسعة . . إلى تاريخ المرضى وبيئاتهم الاجتماعية وحاجاتهم البشرية العامة . منذ ذلك الحين أخذ ماير يؤكد ضرورة دراسة المرض العقلى تحت هذه الأضواء ، وفهمه كرجع المريض لمواقف الحياة التى تعرض له . ومن ثم إلحاحه بضرورة الاهتمام بدراسة أطوار حياه المريض جميعاً وكل اتصالاته البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . ولهذا السبب لم يكن ماير يكتفى بالاقتصار على معرفة حالة المريض الراهنة . بل كان يحتم الوصول إلى كل ما يستطاع عن تاريخه الأسرى وبيئته الاجتماعية وحياته فى مختلف أطواره[1] . وكان هذا الاتجاه يتطلب تعاون فريق من الباحثين يتضافرون معاً للحصول على أكبر قدر ممكن من البيانات عن المريض لكى يرجعوا إليها بعد عند محاولة إعادة تكيفه مع المجتمع ، ومن ثم فقد كان هذا الاتجاه هو نواة البحث الاجتماعى النفسى الذى يعد الآن جانباً لا يمكن الغناء عنه فى العلاج الطبى العقلى .

ورويدا أخذت آراء ماير تتبلور . كما زاد أثرها فى توجيه الطب العقلى بأمريكا أولا ثم خارجها بعد ذلك . وقد يكون مما ساعد على ذلك أن الاتجاه نحو فهم أثر العوامل النفسية فى المرض العقلى قد بدأ ينتشر منذ مستهل القرن العشرين . فقال شارلز دانا ، وهو يومئذ من مشاهير الأطباء العقليين ، « إن

(١) نود أن نشير هنا ، بغير تعقيب ، إلى أنه بينما يدعو رجل مثل ماير إلى ضرورة بذل قصارى ما يمكن من وقت وجهد فى دراسة حياة المريض من وجوهها المختلفة قبل جواز تقرير رأى فى علة حالته وعلاجها ، لا تستغرق « دراسة » بعض هؤلاء المرضى بمصر ، وكلهم من حالات المرض النفسى أو العقلى المستتر وراء كلمة « المرض الصمى » إلا الدقائق التى يقوم فيها مريض آخر بخلع ملابسه استعداداً للفحص على هذا النمط الفريد فى دلالته على مدى الاحترام للمريض ومدى الفهم لمعنى الأمانة العلمية .

الطب العقلى ليس فى الواقع إلا علم النفس المرضى » ، ثم أعقبه أوجست هوخ مخاطبا جمعية الطب النفسى بنيويورك ، فقال إن العوامل النفسية تشترك إلى حد حد كبير فى عملية الحالات البارانوية ، وأضاف أنه تأثر فى هذا الرأى بفرويد وبلوير ويونج ، وتأثر كذلك بماير . أما ماير نفسه فبدأ منذ عام ١٩٠٨ بنشر سلسلة من المقالات ، كان لها أثر هام النفاذ المدوى ، فى « المجلة الأمريكية للجنون » (كما كانت تسمى يومئذ ، وهى الآن « المجلة الأمريكية للطب العقلى ») وقد حاول فى إحدى هذه المقالات وعنوانها « دور العوامل العقلية فى الطب العقلى » أن يشرح المشابهة بين هذه العوامل وبين نظرية المناعة فى علم الأمراض (الباتولوجيا) حيث يكون لمعرفتنا قدرة المريض على مقاومة العدوى ، بمختلف درجاتها فى العنف ، أهمية أشد من مجرد الاقتصار على معرفة التغييرات التى تحدث بالأنسجة . وفى مقال آخر عنوانه « محاولة لتحليل التكوين العصابى » قرر ماير فى ثقة ، وكأنه يتحدث عن أمر مفروغ منه ، « أن عدداً كبيراً ممن يصيرون إلى المرض العقلى فيما بعد يمكن توقع المصير السيء لهم » . وقد عقب كيربى على هذا الرأى ، الجديد يومئذ ، بقوله « إن الأستاذ ماير هو أول من وجه النظر إلى إمكان اكتشاف دلائل النزعة إلى التكيف السيء قبل حدوث المرض العقلى بمدة طويلة ، وفى حالات كثيرة فى مرحلة مبكرة جداً من الحياة » . ونشر ماير مقالاً آخر عنوانه « آراء أساسية عن الخبل المبكر[1] » ألقى به كثيراً من الضوء على الشخصية الفريدة لكثيرين من مرضى الفصام وأدلى فيه بنظريته الخاصة بأثر العادات العقلية السيئة أو الضارة فى نشوء هذا الطراز من المرض العقلى . وعقب ماك كي كامبل على هذا المقال بقوله « إنه من المعالم فى تاريخ الطب العقلى » . . . وأنه « أثار تعقيباً قليلا نسبياً فى ذلك الوقت . ولكن الآراء التى احتواها تخللت الطب العقلى الحديث كله . . وبخاصة فكرة الشخصية وراء المرض العقلى (الذهان) والنظر إلى الذهان (وأعراضه) من خلال سلوك المريض فى مواقف حياته الحقيقية » . . « ثم بصفة أخص « تأكيد العطاء الأصلى للمريض والسمات الخاصة لشخصيته والأثر المعدل للبيت وتكوين عاداته ومشقات المواقف الواقعية » . . وأن تقديرنا لأثر آراء ماير ليتضاعف إذا ذكرنا أنه كان يعارض بها آراء كاربيلين ، وهو يومئذ صاحب الاسم المدوى فى عالم الطب العقلى .

(١) هو ما يعرف الآن بالفصام أو الشيزوفرينيا .

كان كريبلين قبل ذلك بحوالى خمسة عشر عاماً قد انتهى إلى تصنيف للأمراض العقلية يستند إلى فكرة المرض المفرد . وأعلن أن هناك مرضاً عقليا محددا اسمه « الخبل المبكر » يصير بضحيته حتما إلى الخبل التام . وكان الرأى فى عالم الطب العقلى قد استقر إلى ما كان كريبلين ينادى به فجاء بلوير أولا واعترض على اسم « الخبل المبكر » مبتدعاً اسم « الفصام » الذى يعنى به طائفة من الأزجاع الذهانية لا مجرد مرض معين . ثم أنكر بلوير أن الفصام مرض غير قابل للشفاء ، وأشار إلى أن العامل الأساسى فى الفصام ليس انعدام الوجدان كما كان يقال بل هو تفكك الارتباطات ، وأن تفكير المفصوم تفكير اجترارى . . . هو نموذج من التفكير الخيالى الذى تقرره انفعالات منبعثة من الداخل لا حقائق العالم الخارجى . . وبذا عارض بلوير كريبلين وقرب من نظرية الأزجاع النرجسية لفرويد .

فلما جاء ماير وأعلن نظريته فى الفصام ، وحطم فكرة المرض المفرد وقدم تصنيفه للأمراض العقلية على أساس الأزجاع النفسية المرضية لا الأمراض المفردة ، فقدت نظرية كريبلين كل قيمتها العلمية . وانزوت لتأخذ مكانها فى تاريخ الطب العقلى .

ثم وصل ماير إلى قمة مجده العلمى وبلغ أثره فى تقدم الطب العقلى غايته حين أنشأت كلية الطب بجامعة جونز هوبكنز ببالتيمور فى عام ١٩١٠ عيادتها العقلية ذات الشهرة المدوية ، وهى العيادة المعروفة باسم عيادة هنرى فيبس العقلية وأسندت رئاستها إلى ماير مع شغله كرسى الطب العقلى بالجامعة . لقد بلغ من شهرة هذه العيادة أن كانت مقصد الأطباء من جميع أنحاء العالم ، بل أن أطباء مستشفى مودزلى بلندن (وهو المستشفى التعليمى للطب العقلى بإنجلترا) قصدوا إليها ليستكملوا مرانهم ، ومنهم أعلام الطب العقلى بإنجلترا .

فى هذه العيادة تابع ماير تعهد آرائه وإنماءها بالخبرة المتكررة والتجربة المتصلة . فظل على عنايته بجمع كل ما يمكن الوصول إليه من بيانات عن المريض لتكون الأساس فى توجيه حالته . وقد يكون من الإنصاف أن نذكر أن بينل ، وهو طبيب فرنسى من معاصرى الثورة الفرنسية ، كان أول من عنى بدراسة مرضاه دراسة منتظمة دقيقة وأول من دون ملاحظاته بصدد ما رأى فيهم أو سمع منهم أثناء تحدثه إليهم فى مروره اليومى ، وبذا يكون فى الواقع

أول من أدخل فن أخذ التاريخ المرضى فى الحالات العقلية وتدوين الملاحظات عنها مما أصبح فيما بعد أساساً للبحث العلمى فى هذا الميدان . ولكن هذا الاتجاه أهمل بعد بينل ، حتى أحياه ماير ، وبعض أصحابه مثل هوخ وكيربن ، من جديد فى المعهد العقلى بنيويورك الذى أنشىء لغرض البحث العلمى فى ميدان الطب العقلى على أساس البيانات الكلينيكية المستمدة من مرضى المستشفيات الحكومية . ثم فى عيادة فيبس بعد ذلك . وقد كانت هذه البيانات المسهبة جداً هى مادة البحث فى عيادة فيبس . وإليها اطمأن ماير فى دراسته للمرضى تلك الدراسة التى تبلورت فى فكرة الأرجاع المرضية لا الأمراض المنفردة . فإن كل حالة فى رأى ماير هى « نموذج رجع » خاص تنطوى فيه مرونة المريض وتلقائيته وفرديته . ولا سبيل إلى فهم المريض فهما صحيحاً إلا إذا درسنا أرجاع شخصيته من نواحيها جميعاً . لحاجاته وعلاقاته بالبيئة الاجتماعية .

وفى عيادة فيبس أيضاً بدأ ماير ، ثم أنمى ، توجيهه الفلسفى للطب العقلى المعروف باسم « السيكوبيولوجيا » . كان ماير فى عام ١٩١٤ قد بدأ بالاشتراك مع الأستاذين جون واطسن ونايت دنلاب فى إلقاء محاضرات فى علم النفس على طلبة الطب بجامعة جونز هوبكنز ، ولكن ماير سرعان ما استشعر الخيبة من سلوكية واطسن وتجريبية دانلاب فانفرد بالمحاضرات منذ عام ١٩١٥ . لقد كان ماير يصر على ضرورة الاعتراف العلمى بالإنسان كالسمة المحورية فى الطب العقلى ، بل فى الطب العام أيضاً ؛ وكانت له قاعدة تتلخص فى أن ما ينبغى أن نعنى به هو نشاط الكائن أو الفرد كله كوحدة لانشاط أعضاء منفصلة منفردة . فالسيكوبيولوجيا فى نظر ماير كانت هى الفصل المفقود فى كل من الفسيولوجيا والباثولوجيا . . . الفصل الذى يشمل وظائف الفرد كله ، لا وظائف أعضائه كلا منها على حدة .

وقد كان لهذا التوجيه المحكم فى النظر إلى المريض أثره فى العلاج أيضاً . فإن ماير لم يكن يتعلق بنظرية خاصة كما لم يكن يقف عند طريقه علاجية بعينها ، بل لعل خير ما يميز طريقته هو شمولها . كان ماير يدمج كل ما يمكن الحصول عليه من بيانات فى الصورة التى يبدو بها الرجع العقلى المرضى . فكان ينظر إلى الصورة كلها كوحدة أولا ، ثم يراجع بعد ذلك تركيب حياة المريض فى مختلف جوانبها : العضوية والاجتماعية والحضارية العامة والنفسية المحضة . وفى

الوقت الذى كان ماير يؤكد فيه ضرورة العلاج الجسمى كجزء غير منفصل عن أى علاج نفسى قد تدعو الحاجة إليه لم ينس الغذاء المناسب والعلاج بالعمل والنشاط الترويحى إذ يتناول المشكلات الاجتماعية والنفسية لمرضاه ويساعدهم فى حلها . كما أنه لم يغفل أهمية تتبع الحالات والعناية بالمرضى بعد خروجهم من المستشفى . لقد كان ماير يؤكد أن نجاح العلاج السيكوبيولوجى متوقف على أن يشمل علاج المريض كل وجوه نشاطه بوصفه كائناً اجتماعياً وبيولوجيا مع بذل غاية ما يستطاع من الوسائط العلاجية كلما ظهرت مشكلة تدعو إلى الحل . فليس وجه من وجوه الكائن بأقل ولا بأكثر أهمية من غيره . وليس من الغلو فى شىء القول بأن هذا التوجيه كان من أقوى العوامل التى دفعت بالعلاج الطبى العقلى إلى الأمام ووصلت به إلى هذا المستوى الذى نراه اليوم .

ولا شك فى أن هذه النظرة السيكوبيولوجية إلى الإنسان هى التى مهدت للاتجاه الطبى المعروف الآن باسم « الطب الجسمى النفسى » . فقد امتد النظر إلى الإنسان كوحدة من الطب العقلى إلى الطب العام ، وامتد العلاج تبعاً لذلك من المرض إلى المريض . وقد كان ماير يعترض على اسم « الطب الجسمى النفسى » اعتراضاً شديداً خشيه أن ينطوى هذا اللفظ على معنى ثنائية الجسم والنفس ، وهو المعنى الذى جهد كثيراً فى إنكاره ومحاربته حتى لا يتطرق إلى أحد الظن بأن وظائف الكائن الفرد يمكن أن تنفصل أو تنشط بعضها بمعزل عن بعضها الآخر . لقد كان ماير يدين بالمذهب الواحدى فى النظر إلى الإنسان ، لأنه فى يقينه المذهب الوحيد الذى يقربنا من فهمه ويساعدنا على حل مشكلاته .

ومما يذكر لماير بالتقدير أنه كان من مؤسسى الجمعية الأمريكية للتحليل النفسى على الرغم من أنه لم يقبل نظريات التحليل النفسى وطريقته قبولا تاماً . ولكنه كان مثالا يحتذى للعالم الذى يدرس بعناية الآراء التى يعارضها ، ويستطيع أن يحكم عليها حكماً موضوعياً ينطوى على التقويم السديد لما يرى فيها من وجوه الصواب ، ولهذا لم يتردد قط فى تقرير أهمية الاتجاه الديناميكى لمدرسة التحليل النفسى فى فهم الاضطرابات النفسية والعقلية وعلاجها .

وإلى جانب هذا كله كان ماير شخصية قوية الأثر فى كل حركة علمية أو اجتماعية ظهرت فى نطاق الطب العقلى ، وقد بدأ نشاطه فى هذا السبيل منذ

بدأ حياته بأمريكا . ففى العام التالى لوصوله كون رابطة من الأطباء فى الولايات الوسطى عقدت اجتماعاتها عددا من السنين . كان هدفها مناقشة المشكلات العلمية ، وهو اتجاه جديد فى ميدان الطب العقلى يومئذ . وقد ظل ماير حيثما كان يعمل ينظم أطباء مستشفاه فى حلقات للمناقشة ، وبعد ذلك بدأ يكون مؤتمرات داخل المستشفيات كانت هى النواة لجمعيات الطب العقلى المنتشرة فى جميع أنحاء أمريكا الآن .

ولما بدأ كليفورد بيرز حركة الصحة العقلية بأمريكا وتكونت اللجنة الأهلية للصحة العقلية فى فبراير من عام ١٩٠٩ كان ماير من أبرز أعضائها بل كان روحها الموجهة ، وقد عمل فى سبيل هذه الدعوه عن طريق الكتابة والمحاضرة ما لم يقم به غيره . وكانت خلاصة رأيه أن الوقاية من المرض العقلى إنما تكون بالعمل على تحقيق الغاية التى نسميها الصحة . وأن الصحة العقلية تعنى النزعة الإيجابية إلى أن يعيش المرء فى انسجام مع ما يعرف أنه فى نطاق اختياره وحدود إمكانياته .

* * *

ظل أدولف ماير ما يقرب من الخمسين عاماً أقوى الشخصيات وأظهرها فى الطب العقلى بأمريكا وكان له أثر عميق شامل على كل البحوث التى أجريت فى هذا الميدان . فقد كان لا يفتأ يشجع المبتدئين من الباحثين أينما كانوا متى بدا منهم الاهتمام بالمشكلات الحيوية للطب العقلى والإلمام بها .

لقد كان ماير بحق عميد الطب العقلى فى النصف الأول من القرن العشرين ، على أن زعامته لم تقتصر على هذا الميدان وحده وإنما شملت أيضاً ميادين الطب العقلى الكلينيكى والبحث العلمى فى ميدان الطب العقلى والصحة العقلية والطب العقلى الاجتماعى ، كما أن آراءه تخللت كل النظريات الحديثة فى الطب العقلى ، وفاق أثره فى تعليم الطب العقلى بأمريكا وفى تنظيم المستشفيات وحركة الصحة العقلية أى أثر آخر .

وثمة جانب آخر كان من مميزات هذه الشخصية العظيمة ذلك هو جانب الاطلاع الشامل العميق ، فإن خير ما فى مساهمة ماير للطب العقلى إنما كان مستمداً من ذهنه المستنير وثقافته الواسعة . وإنه ليعد فى نظر الكثيرين أحد ممثلى عصر عظيم كان يتطلب من الإخصائى العقلى لا معرفة وسائل المعالجة النمطية لمرضى العقل وحسب ، ولكن الإلمام أيضاً بتاريخ الطب والعلم وبالنظريات التى يرفضها

المرء والتى يرتضيها ، وبمجموع التراث الثقافى الذى تمثله الحضارة الراهنة . فإن هذه الحضارة بعيبها هى التى يعيش المرء فيها صحيحا أو عليلا وذلك وفقاً للتفاعل المتبادل بين شخصيته كلها والعالم الذى يطلب إليه التعامل معه .

وقد قيل أحياناً إن ماير لم يكن منتجاً كما ينبغى لمثله فى عالم التأليف العلمى . ولكن يدحض هذا الزعم أن كتابا يحوى اثنين وخمسين مقالا بقلمه فى مختلف موضوعات الطب العقلى نشر منذ عامين . كما أن جامعة جونز هوبكنز بسبيل إعداد كتاب فى أربعة مجلدات يشمل إنتاجه العلمى ، وإذا كان ما يؤخذ عليه أنه لم يضع كتاباً منهجياً منتظما فى الطب العقلى ، فإن أقوى أثر له إنما كان فى الواقع عن طريق اتصاله المباشر بتلاميذه خلال خمسين عاماً .

وقد حظى ماير بأقصى درجات التكريم العلمى فى حياته . فنال درجات فخرية من جامعتى ييل وهارفارد ودعى لرئاسة محاضرات سالمون ومودزلى وانتخب لرئاسة اللجنة الأهلية للصحة العقلية واللجنة العالمية للصحة العقلية والجمعية الأمريكية للطب العصبى والجمعية الأمريكية للطب العقلى وجمعية نيويورك للطب العقلى والجمعية السيكوباتولوجية الأمريكية ، كما منح عضوية فخرية فى جمعيتى واشنجطن ونيويورك للتحليل النفسى ، هذا فضلا عن أستاذية الطب العقلى بجامعتى كورنل وجونز هوبكنز .

أما الذين كان لهم حظ العمل معه فإنهم يذكرون حكمته وروحه المرحة ونشاطه الذى لا يفتر وسعة اطلاعه التى تكاد تبلغ حد الظواهر الخارقة ، ومهارته وصبره ورقته فى العلاج النفسى ومستواه العالى فى البحث العلمى ومواهبه التى لا تبارى فى التدريس ووفاءه كصديق وسخاءه كمضيف لتلاميذه وزملائه وزواره .

لقد خسر العالم العلمى بوفاة أدولف ماير شخصية من أعظم الشخصيات ، ولكن الأساس المكين الذى وضعه مهد للطب العقلى سبيل المضى إلى أمام .

صبرى جرجس